الإمام عبد الحميد بن باديس ومنهجه في دراسة العقيدة

*أ. السعيد رحماني**

الشيخ عبد الحميد بن باديس عالم من الطراز الأول يمتلك القدرة على استيعاب المعارف والعلوم المعقدة وتبسيطها للناس، وتلك مزية قلما تتوفر للعماء. (محمد الغزالي)

مدخــــل

عبد الحميد بن باديس علم من أعلام الفكر الإسلامي في الجزائر وشخصية علمية مرموقة تفوق في مختلف ميادين المعرفة على كثير من أهل المغرب والمشرق وترك بصمات واضحة في ساحة الفكر والإصلاح والتربية والدعوة، إلا أنه لم يحظ بالعناية المطلوبة من قبل الباحثين الجزائريين، ولم يلق الإهتمام الكافي من قبل الدارسين وطلبة العلم في الجامعات الجزائرية عموما وكليات العلوم الإسلامية خصوصا. والسبب يرجع إلى ما هو شائع في ثقافة الجزائريين، فهم يجهلون أعلامهم ومفكريهم، بينما يعرف عنهم أهلُ المشرق الكثير،

---

* أستاذ مساعد مكلف بالدروس جامعة الجزائر.

ويدركون منزلتهم ومكانتهم في الدين والعلم أكثر مما يدركه حتى خاصة الجزائريين، فابن باديس والإبراهيمي ومالك بن نبي... لم ينالوا حقهم من الدراسة والعناية والكتابة إلا عند إخوانهم المشارقة. وهذا لعمري من أقبح وأبشع الصفات التي يمكن أن نتصف بها.

ولقد أردت من خلال هذا البحث أن أدرس منهج العلامة الشيخ عبد الحميد ابن باديس وأسلوبه في عرض العقيدة الإسلامية، لأبرز جوانب الأصالة والابتكار والتجديد فيه، وأتلمس طريقته التي اعتمدها لإعطاء نفس جديد للعقيدة الإسلامية عسى أن تؤدي دورها وتؤتي ثمارها المرجوة في النفوس،إلا أن أدوات البحث اللازمة لاستخلاص منهجه وطريقته تنقصنا،ويرجع السبب في ذلك إلى أن أهم ما يمكن أن نعتمد عليه هو تفسيره للقرآن الكريم وشرحه للحديث الشريف قد فقد ولم يصل إلينا منه إلا النزر اليسير،فمما أصيبت به الجزائر وهي أعظم مصيبة أن تراث الشيخ العلامة ابن باديس لم يكتب ولم يرو عنه من قبل تلامذته ، فضاع بذلك عنا وعن الأمة خير كثير ومصدر من أهم مصادر دراسة فكر ابن باديس وتراثه ، ومع ذلك فقد بذلت جهدا متواضعا حاولت من خلاله تلمس بعض جوانب منهج الإمام في عرض العقيدة الإسلامية وطريقته في تدريسها، وإبرازها للناس أداء لما علينا من حق الرجل، وخدمة لتراث أعلامنا الذين تكالب العلمانيون والتغريبيون عليهم وتعاونوا على طمس تراثهم واجتثاث أثرهم وفصل الأجيال عن أثرهم وروحهم خدمة لأعداء الأمة وعربونا لعمالتهم لفرنسا وبقاياها النافذة. ولقد رأيت من الواجب أن أقدم هذه المحاولة قاصدا إبراز الجانب العقدي باعتباره من أهم جوانب فكر ابن باديس. والذي دفعني إلى القيام بهذه المحاولة عديد الأسباب أخص بالذكر منها ما يلي:

1- إن علماء الجزائر وعلى رأسهم ابن باديس قد تركوا بإسهاماتهم العلمية ونشاطاتهم الإصلاحية وجهودهم الفكرية أثرا كبيرا في مختلف الأوساط العلمية والإصلاحية والتربوية على الصعيدين المغربي والمشرقي، ودليل ذلك ما نجده من المؤلفات والأطروحات والرسائل الجامعية هنا وهناك، وما نلمسه من تأثر الكثير من الباحثين بمناهجهم وأفكارهم وآرائهم.

2- ما أراه من الحق لهؤلاء الأعلام علينا أن نخلد ذكراهم وأسماءهم ونعرف بتراثهم العلمي وجهودهم التربوية والإصلاحية ليبقوا مصدر إشعاع وإلهام وموضع فخر واعتزاز للأجيال اللاحقة في ظل المحاولات الرامية إلى طمس معالم هوية الأمة الجزائرية.

3- الوفاء لهم بالحفاظ على تراثهم وذكراهم لقاء ما قدموه وما بذلوه من وقت وجهد ومال لخدمة الأمة والدين والوطن، وذلك أقل القليل الذي يمكن أن نقدمه لهم.

مكانة العقيدة في حياة المسلمين ووجوب إصلاحها

كان المقصد الرئيسي الذي توخاه ابن باديس من وراء دروسه في التفسير والحديث والعقيدة أن يصل بالإنسان المسلم عن طريق التربية إلى مرتبة أخلاقية عالية، تمكنه من التفاعل مع المجتمع والواقع تفاعلا إيجابيا ومثمرا في ظلال عقيدة الإسلام السمحة الصحيحة التي شرعت لترشد الناس وتدلهم إلى ما فيه صلاحهم في الدنيا وسعادتهم في الآخرة. فبحث عن مواضع الخلل وأسباب الضعف وسعى إلى علاجها.

– أسباب ضعف المسلمين

لقد لمس العلامة عبد الحميد بن باديس بعد دراسة واعية وتحليل عميق لحال الأمة الجزائرية أن صورة الإسلام في أذهان الناس وفي حياتهم تختلف عن الصورة الأصلية الصحيحة لما دخل عليها

من عناصر غريبة وما اعتراها من تشويه وانحراف، غيرت معالم الإسلام الأساسية، وأدت إلى ضعف المجتمع الإسلامي ونفور الكثير من الناس وابتعادهم عن تعاليم الإسلام السمحة،فطرح إشكالية الإصلاح،كيف يكون ومن أين يبدأ ووضع هذه الإشكالية كمسألة أساسية لمشروعه الإصلاحي ووضع إصلاح العقيدة الأساس الأول لإصلاح الأمة والنهوض بها .

- إصلاح الجانب العقائدي

كان أول ما اتجه إليه ابن باديس من أجل تحقيق هدف منهجه الإصلاحي هو الجانب العقائدي، لأن العقيدة في رأيه هي اللبنة الأساسية في بناء الإسلام،والأساس الذي تقوم عليه حياة المسلمين، وهي التي تكون المنطلق الفكري لعقلية المسلم والأساس النفسي لسلوكه"[1].

أهمية الجانب الاعتقادي في حياة المسلمين

إن العقيدة هي أهم قضية من قضايا الإسلام والانحراف إذا أصاب العقائد الإسلامية يكون أثره عظيما وخطره شديدا، لذلك توجه ابن باديس في أول ما توجه بجهده وعمله الإصلاحي إلى العقيدة الإسلامية لإصلاحها وإعادة الروح إليها.

ولما توجه ابن باديس إلى جانب العقائد الإسلامية وتأمل واقعها عند المسلمين وجد بها اضطرابا كبيرا وخللا عظيما وتراءت له تلك الحجب الكثيفة التي ابتليت بها عقيدة الأمة بسبب المناهج الكلامية والمفاهيم الفلسفية المنطقية المجردة، ففقد الإنسان المسلم نتيجة لذلك الرؤية السليمة إلى الحياة وغاب دوره الرسالي فيها،

---

1. حسن عبد الرحمن سلوادي: *ابن باديس مفسرا*، ص76.

ووقع في تناقضات كبيرة ومستمرة وأضحى كائنا مشلولا، متوتر الفكر مشوه الشخصية خائر القوى ضعيف الكيان.

فبحث عن المخرج من هذا المأزق وسأل عن الطريق المؤدي إلى النجاة، فلم يجد ذلك لا في المناهج الكلامية القديمة ولا في الطرق الفلسفية المنطقية المجردة وإنما السبيل القويم والمنهج السليم هو فيما قرره القرآن الكريم، فعبر عن ذلك بقوله:" قلوبنا معرضة لخطرات الوسواس بل للأوهام والشكوك، فالذي يثبتها، ويدفع عنها الاضطراب، ويربطها باليقين هو القرآن الكريم"[1].

فالقرآن الكريم يحمل من الأدلة المقنعة والشواهد المؤيدة ما يرضى العقل وتطمئن النفس ويشبع العاطفة، ويعود بالضمير إلى الإيمان والإذعان. لأنه قادر بواقعيته ووضوح أدلته على التأثير في العقول وذلك راجع إلى ماله من جاذبية خاصة منشؤها ذلك التوافق الكامل مع أسلوب الناس الفطري في التفكير والشعور، والاستجابة الحقيقية لما تتطلع إليه نفوسهم في شؤون العقيدة والسلوك"[2].

وتوصل ابن باديس بناء على هذا إلى أن المسلمين هم في أمس وأشد الحاجة في موضوع العقائد إلى دراسة القرآن دراسة حرة عميقة ومجردة عن التأثيرات الذاتية والمؤثرات الخارجية من مناهج الفلسفات والثقافات الأجنبية وعلى علماء المسلمين أن يتجهوا إلى القرآن الكريم ليستطلعوا معالم العقيدة الإسلامية الصحيحة وأسسها السليمة، ويستنبطوا منه الأدلة القوية والحجج الدامغة الماثلة في كل سورة من سوره وكل آية من آياته، وفي كل بنائه المتكامل الجامع المعجز:"فأدلة العقائد مبسوطة في القرآن الكريم بغاية البيان، ونهاية التيسير..فحق على أهل العلم أن يقوموا بتعليم العامة لعقائدها

---

1. ابن باديس: *التفسير*: ص158. – **2.** حسن عبد الصمد سلواني: *ابن باديس مفسرا*، ص77.

الدينية، وأدلة تلك العقائد من القرآن الكريم، إذ يجب على كل مكلف أن يكون في كل عقيدة من عقائده الدينية على علم"[1].

فقد أرسى القرآن الكريم منهجا متكاملا للعقيدة، جمع فيه بين العقل والعاطفة، فلم يلغ العقل، بل أعطاه دورا فعالا في البحث والتأمل، والنظر والتدبر في الآيات وفي الآفاق وفي الأنفس، لأن القرآن يدعو إلى التوحيد والاعتقاد في ألوهية الخالق، القائم على الحجج العقلية المنطقية والبراهين الكونية، التي تفتح باب النظر والفكر، وتزيل الغشاوة والضلال على بصيرة الإنسان، وهذا المنهج الذي ارتضاه ابن باديس هو ما دعا إلى اعتماده ابن رشد في كتابه مناهج الأدلة في معرض حديثه عن مناهج الفلاسفة المتكلمين ونقده لهم فقال: فإذا يجب أن لا يجعل مبدأ لمعرفة الله تبارك وتعالى وبخاصة الجمهور، فإن طريقة معرفة الله أوضح من هذه على ما سنبين من قولنا بعد"[2].

– منهج المتكلمين والفلاسفة وموقفه منه

لقد بينا فيما سبق أن ابن باديس يدعو إلى اعتماد منهج القرآن وطريقته في عرض العقيدة الإسلامية، لأن القرآن كما يقول: "أبسط عقائد الإيمان بأدلتها العقلية القريبة القاطعة"[3]. ويرى أنه من الأفضل ترك الطرق الكلامية والمناهج الفلسفية لأن الإعراض عن طريقة القرآن وأدلته وأسلوبه وإتباع هذه الطرائق من قبيل هجر القرآن.

فالإعراض عن أدلة القرآن والذهاب مع أدلة المتكلمين الصعبة ذات العبارات الاصطلاحية فإنه من الهجر لكتاب الله وتصعيب طريق

---

1. ابن باديس: المرجع السابق: ص178. – **2.** *ابن باديس ومناهج الأدلة*: ص51، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط1، 1982. – **3.** ابن باديس: *التفسير*، ص228.

العلم إلى عباده، وهم في أشد الحاجة إليه"[1]. ويبرر موقفه الرافض لهذه المناهج بكونها طرائق كلامية معقدة ذات الأشكال المتعددة والاصطلاحات الصعبة التي لا يفهمها الطلبة والخاصة، فكيف يفهمها العامة من الناس؟. وبين أن الذي يهجر عقائد الإيمان بأدلتها القرآنية ويقول بأنها أدلة سمعية لا تحصل اليقين ويأخذ بالطرائق الكلامية المعقدة وإشكالاتها المتعددة واصطلاحاتها الصعبة، إنما هو هاجر للقرآن ومخالف لنهج سلف الأمة، هذا هو علم الكلام الذي يكرهه ابن باديس ويرفضه لإدراكه أنه لم ين على أسس سليمة، فابتعد تدريجيا عن المصالح الحقيقية للمسلمين وشغل نفسه بقضايا فرعية لم تنتج إلا تعميق الخلاف وإشعال نار الفتنة بين المسلمين في وقت هم أحوج ما يكونون فيه إلى الاتحاد والتعاون لدرء المخاطر المحدقة بهم والأطماع التي تهدد وجودهم وكيانهم[2].

وعلى الرغم من أن ابن باديس يرفض منهج المتكلمين والفلاسفة إلا أنه لم يشنع عليهم و لم يتهمهم بالزندقة والمروق من الدين كما فعل بعض الأئمة.

– مصدر العقيدة عند ابن باديس

يدعو بن باديس المسلمين عامتهم وخاصتهم إلى أن يتجهوا إلى القرآن الكريم فيأخذوا منه معالم العقيدة ويتبينوا أسسها ويستنبطوا أدلتها الماثلة في كل سورة من سوره بل وفي كل آية من آياته فأدلة العقائد كما يقول عليه رحمة الله: "مبسوطة في القرآن الكريم بغاية البيان، ونهاية التيسير"[3].

---

1. نفسه، ص158. – **2**. حسن عبد الرحمن لوادي: *ابن ابن باديس مفسرا*: ص78-79. – **3**. ابن باديس: *التفسير*، ص158.

فالقرآن الكريم فيه من الأدلة المقنعة والشواهد المؤيدة وفيه من الواقعية ووضوح الأدلة وفيه من الجاذبية التي منشؤها ذلك التوافق العجيب والكامل مع الفطرة والاستجابة الحقيقية لما تتطلع إليه النفوس في شؤون العقيدة ما يرضي العقل ويؤثر فيه ويطمئن النفس ويعود الضمير إلى الإيمان والإذعان لأجل ذلك كله دعا ابن باديس أهل العلم أن يقوموا بتعليم العامة العقائد الدينية وأدلتها من القرآن الكريم.

فقال: فحق على أهل العلم أن يقوموا بتعليم العامة العقائد الدينية، وأدلة تلك العقائد من القرآن الكريم إذ يجب على كل مكلف أن يكون في كل عقيدة من عقائده الدينية على علم"[1].

وخلاصة القول أن ابن باديس يرى أن القرآن الكريم اعتنى عناية بالغة بأمور العقيدة وتصحيحها، واستفاض في تحديد معالم التوحيد من حيث أنه وصف الله تعالى بما يليق بجلاله، وبما ينبغي له، ونزهه عما لا يليق به وبذلك فهو قد أرسى منهجا متكاملا في العقيدة الصحيحة .

مكانة التوحيد وأقسامه عند ابن باديس

إن التوحيد في نظر ابن باديس هو ركن الزاوية في الإسلام وهو الأصل الذي لا تكون النجاة ولا تقبل الأعمال إلا به، وما أرسل الله رسوله إلا ليدعو إلى التوحيد ويذكر بحججه وأدلته ولذلك نجد المنهج الباديسي في العقيدة يقوم على الأسس التالية:

أولا: التوحيد أساس الدين، فكل شرك في الاعتقاد أو في القول أو في الفعل فهو باطل مردود على صاحبه.

1. ابن باديس: نفسه، ص178.

ثانيا: العمل الصالح المبني على التوحيد به وحده النجاة والسعادة عند الله فلا النسب ولا الحسب ولا الحظ الذي يغني عن الظالم شيئا"[1]. ويقسم التوحيد إلى قسمين:

الأول: هو التوحيد العلمي: ويعني به الاعتقاد بوحدانية الخالق والإقرار له بالربوبية والألوهية ويتضمن أيضا النهي عن اعتقاد ربوبية سواه وهذا من باب العلم.

ثانيا: التوحيد العملي: وهو الأمر بأن تكون العبادة مقصورة عليه وحده فمن وحدانيته جل جلاله في ربوبيته وألوهيته علما وعملا فقد استكمل حظه من مقام هذا الأساس العظيم. ولا يكون المسلم مسلما إلا بهما.

وبما أن التوحيد يكتسي أهمية بالغة وخطيرة في بنية العقيدة الإسلامية فإنه من الضروري تحديد غرض هذه العقيدة لتحقيق الهدف منها.

الأسباب الداعية إلى تجديد عرض الإسلام وعقائده اليوم

- إن توثيق أسباب الاتصال بين العالم قد ضاعف من فرص الدعوة الإسلامية واستوجب علينا عرض أحكام الإسلام ومبادئه بمعايير التفاهم العقلي التي تقربها لغير المؤمنين.

- وأدى اتساع العلم بالطبيعة وتجلي الوحدة والإنسان في نواميسها إلى شيوع النظر المنهجي الفاحص والدراسة الشمولية لشؤون الحياة مما يتيح للمسلمين إذا ما أبرزوا نظام الإسلام بنهجه المتكامل وحكمته البالغة هداية المفكرين الضالين الذين زهدهم في الدين طقوس غير مفهومة وتقريرات غير معقولة وتعاليم غير منظومة"[2]

---

1. ابن باديس: *أصول الدعوة:* وزارة الشؤون الدينية، 1993. – 2. د.الزامي: *الصلاة:* ص6-7، دار العلم، الكويت، ط4، 1983.

وانطلاقا من هذا المنظور ومن هذه المعطيات الجديدة يرى ابن باديس أن علم التوحيد يجب أن يتطور وتجدد أساليبه وطرائق عرض مسائله وأدلته، وذلك بالاعتماد على المصادر الأساسية والابتعاد عن استخدام الأقيسة المنطقية التي لم تعد تفيد أفهام الشباب ولا تناسب عقولهم، فالمسلم الذي يعيش في هذا العصر، يعيش ظروفا تختلف عن تلك التي عاشها غيره في الزمن الماضي، وعلى من يعرض العقائد الإسلامية أن يتبع المنهج الذي يجعل علم التوحيد نافعا ومفيدا وفعالا في تثبيت عقائد الدين الإسلامي وجعلها مقنعة للعقل مرضية للوجدان مثمرة للعمل.

ولأجل تحقيق تلك الغاية التي رسمها لنفسه "فقد اعتمد على آيات الذكر الحكيم بشكل رئيسي فأوردها متتابعة متناسقة تكون لمن يتأملها ويمعن النظر فيها الدليل القاطع والحجة الساطعة وتكون فيها الحلول المرضية المقنعة لكل ما يجول في النفس البشرية من تساؤلات واستفسارات وما يعرض لها من أوهام وشكوك"[1].

- وجود الله أمر مركوز في الفطرة الإنسانية

يرى ابن باديس من خلال عرضه لمسائل العقيدة الإسلامية أن وجود الله أمر فطري مركوز في نفس الإنسان منذ خلقه، والإيمان بأنه خالق ومدبر للكون من الأمور التي يسلم بها كل إنسان عاقل على التمييز حتى العرب الذين عاصرهم الرسول كانوا مع شركهم يعترفون بوجود الله "فالاعتراف بوجود خالق للكون يكاد يكون غريزة مركوزة في الفطرة، ويكاد لا يكون لمنكريه-عنادا-بنسبة عددية بين البشر"[2] كما يقول ابن باديس، إلا أن الذي حدث ويحدث في مراحل تاريخ البشرية الطويل والمتشعب هو أنّ أكثر

---

1. حسن عبد الرحمان سلوادي: *ابن باديس*، ص80-81. – **2.** ابن باديس: *التفسير*: 528.

المعترفين بوجوده قد نسبوا إليه ما لا يجوز عليه ولا يليق بجلاله من الصاحبة، والولد والمادة والصورة والحلول والشريك في التصرف في الكون والتشريك في التوجه، والضراعة إليه والسؤال عنه، والاتكال عليه"[1].

- الانحراف في العقيدة يصيب الصفات أكثر من غيرها

إذا كان وجود الله تعالى ومعرفة ذلك الوجود أمرا فطريا مركوزا في النفس الإنسانية، فإن الانحراف في العقيدة يصيب أول ما يصيب الإيمان بصفات الله تعالى في تصور الأذهان فالإيمان بالصفات كما يقول الدكتور عبد المجيد النجار"يكون عرضة للشهوة، وهو بالتالي كثيرا ما يكون عرضة للانحراف بالغفلة والتناسي أو بالتغيير والتبديل أو بالاضطراب في فهم المدلول للصفة المعينة وفي استيعاب أبعادها المختلفة. ودليل ذلك ما وقع لكثير من الفلاسفة والمفكرين الذين توصل الكثير منهم بعقولهم إلى الإيمان بوجود الله لكنهم اضطربوا في تصور صفاته والإيمان به، وذلك مثل بعض فلاسفة اليونان الذين آمنوا بواجب الوجود لكنهم أثبتوا صفة العلم بالكليات دون الجزئيات وقال البعض إنه خلق العالم بالفيض فيما يشبه سلب الإرادة عنه، ذلك لأن العقل وحده لا يوصل إلى حقيقة الصفات كلها في وضوح ودقة مثلما يتوصل إلى حقيقة الوجود"[2].

وتاريخ الديانات والعقائد يشهد بما لا يدع مجالا للشك أن الأقوام التي أرسل إليها الرسل و أنزلت إليها الكتب لم تكن في الغالب قد انحرفت في اعتقادها بوجود الله وإنما الذي أصابها هو الانحراف في فهم الصفات، فقد انحرف اليهود إلى التجسيم وانحرف النصارى إلى التثليث وانحرف عرب الجاهلية إلى الوثنية، وكله انحراف على حقيقة صفة الوحدانية.

---

1. ابن باديس: *التفسير*، ص528. - **2.** د.عبد المجيد النجار: *الإيمان*، ص110.

– انحراف المسلمين الأكبر في العقيدة كان في الصفات الإلهية

لقد أدرك ابن باديس أن من بين الانحرافات الكبيرة التي أصابت العقيدة الإسلامية ما أصاب مبحث الصفات" فلم يصب المسلمين انحراف في الإيمان بوجود الله تعالى، لكن بعضا منهم طرأ عليه الخلل في الإيمان ببعض صفاته في شمول حقيقتها، وصفاتها، وذلك مثل صفة الوحدانية والرزق والصفات الحيوية، وقد كان لذلك الانحراف أثر في حياتهم كلها"[1] لذلك رأى أن يصلح هذا الجانب الهام وأثر أن يستخدم الأسلوب القرآني: "فقد توخى منهج القرآن في الاستدلال وزكى أسلوبه من الرد والنقد بما يتلاءم مع النفوس من فطرة وعقوبة"[2] لإدراكه أن النتيجة الوحيدة التي توصل إليها النظر الفلسفي والعقلي في بحث تلك المسائل التي تتعلق بالذات الإلهية والغيبيات لا تعدو كونها نظريات عائمة أسهمت إلى حد بعيد في إيصال العقل الإنساني إلى طريق مسدود ذلك..... أن التجربة الدينية حين تتصل اتصالا وثيقا بالحقيقة وأي نظر فيها ينفصل عن النواحي الوجدانية الداخلية، ولا ينبع من داخلية النفس سيفشل حتما في الوصول إلى ماهيتها وحقيقتها"[3].

– منهج الاستدلال على صفات الله عند ابن باديس

لقد بين ابن باديس في دروسه عن العقيدة الإسلامية أن الألوهية تتلخص في أن الله هو الوجود الحق لذاته الذي لا يقبل وجوده العدم فهو القديم الذي لا بداية لوجوده، وهو الباقي الذي لا نهاية لوجوده، وهو سبحانه الوجود الذي سبق وجوده كل وجود"[4].

---

1. النجار عبد المجيد: *الإيما*، ص112. – **2.** رشيد الداودي: *المصلحون المغاربة* ص114، دار المغرب العربي، 1973، تونس. — **3.** حسن عبد الرحمان سلوادي: *ابن باديس مفسرا*: ص83. – **4.** ابن باديس: *العقائد الإسلامية*: ص45.

وهذه الحقائق ما كانت لتغيب عن العقل الإنساني إلا بما يتعرض له من النسيان والغفلة وإتباع الشهوات والعناد والمكابرة. والإنسان في الحقيقة لا يحتاج في معرفة الله إلى أكثر من التوجيه والتذكير، إلى ما بلغت نظرته إلى ما غفل عنه من المعرفة"ولذلك فإن الأديان السماوية جاءت تركز في خطابها على التذكير بصفات الله أكثر من أنها تدعو إلى الإيمان بوجوده، إذ هي محل الانحراف والضلال في تصور الأذهان"[1] لذلك كان الأنبياء والرسل يذكرون البشر ويحذرونهم من الغفلة عن معرفة الله تعالى ويذكرون بصفاته كالكرم والرحمة والمغفرة...

وإن المتأمل في طريقة ابن باديس يجد أنه يورد الآيات ويستدل بها على الصفات بما يوضح بأن النواة التي يدور حولها نظام الإقناع القرآني تنحصر في فكرة رئيسية هي أن الله تعالى يتصف بصفات الكمال المطلق والخير المطلق والقوة المطلقة، وقد خلق كل شيء وأخضعه لإرادته، وأن طاعته واجبة على الإنسان.

ويركز القرآن تركيزا شديدا على مسألة الوحدانية ويدعمها بمختلف الأدلة والبراهين القادرة على إقناع أعتى العقول وأكثرها صلابة وإنكارا أو جحودا. ولا نجد في القرآن تركيزا على وجود الله كما نجده في مسألة الصفات والوحدانية، ففي القرآن من الشواهد المؤيدة والأدلة المقنعة ما يرضي العقول ويطمئن النفوس ويقود الضمائر إلى الإيمان والإذعان، فهو أي القرآن قادر على كماله من واقعية ووضوح الأدلة، وماله من الجاذبية على التأثير في عقول الناس لماله من التوافق التام مع الفطرة الإنسان وتفكيرها العقلي المنطقي السليم.

---

1. د.النجار عبد المجيد: *الإيمان*، ص112.

الأسباب والمسببات عند ابن باديس

الأسباب والمسببات من المباحث التي أثارت جدلا في الفكر الإسلامي قديما ولا يزال إلى اليوم يتردد صدى هذا الجدل والنقاش لأنه مرتبط بأصل من أصول الإيمان هو الإيمان بقضاء الله وقدره.

وترجع أصل المشكلة إلى وقت المعتزلة والأشاعرة إذ فرقت بين الفريقين، ثم ظهر فريق ثالث هم المتصوفة واتسعت الهوة بعد ذلك واشتد الخلاف إلى أن بلغ مبلغا كبيرا عند كل من الغزالي وابن رشد. ومنذ ذلك التاريخ اعتنى ابن رشد بفكرة السببية ودرسها بعناية وقدم ما يراه حلا لهذه المشكلة للخروج من المأزق الذي آل إليه الفكر الإسلامي بخصوص هذه القضية.

أما ابن باديس فإنه يرى أن الله تعالى أودع في الكون أسبابا تؤدي إلى مسبباتها بمشيئة الله خالق الأسباب والمسببات وأن الموجودات كلها علويها وسفليها مشمولة برحمة الله مغمورة بنعمته.

وكل موجود قد أعطي من التكوين ما يناسب وجوده وما يتوقف عليه بقاؤه وارتقاؤه سواء كان من عالم الجماد أو عالم النبات أو عالم الحيوان"[1].

– الأسباب نظام كوني فاعل على الجميع

ويرى ابن باديس أن الله تعالى جعل نظام الكون قائما على الأسباب والمسببات وأن هذا النظام عام لا يميز بين البشر على أساس الإيمان أو عدمه"فمن تمسك من البشر بالأسباب بلغ بإذن الله إلى مسبباتها بقطع النظر عن كونه مؤمنا أو كافرا صالحا أو طالحا فليست هذه السببية التي أودعها الله في الكون وقفا على قوم دون

---

1. تركي رابح: *ابن باديس رائد الإصلاح*، ص202.

قوم، فكل إنسان سواء آمن أو لم يؤمن قادر على استخدام هذه القوانين الكونية للوصول إلى تحقيق غايته العلمية، لكن شرط أن يحصل على المعرفة اللازمة لاكتشاف هذه القوانين وكيف يمكن تطبيقها"[1].

ويبين ابن باديس على خلاف الفلاسفة أن النظام الكوني البديع هو من صنع الله الذي خلق العالم ويرعاه بحفظه وأن رحمة الله وعدله جعلت هذا النظام في خدمة البشرية جمعاء، فأسباب الحياة والعمران والرفاهية مبذولة لجميع الناس بفضل الله ورحمته ومن تمسك بها على بينة من أمره انتهى إلى نتائجها، وهذا ما يؤكده بقوله:" إن الأسباب الكونية التي وضعها الله في هذه الحياة وسائل لمسبباتها موصلة بإذن الله تعالى من تمسك بها إلى ما جعلت وسيلة إليه بمقتضى أمر الله وتقديره وسنته في نظام هذه الحياة والكون ولو كان ذلك المتمسك بها لا يؤمن بالله ولا باليوم الآخر ولا يصدق بالمرسلين"[2].

– الأخذ بالأسباب من مقتضيات الإيمان

يرى بن باديس أن الأخذ بالأسباب التي تؤدي بالنتائج وفق النظام الكوني البديع الذي أودعه الله في الكون والحياة لا يتعارض مطلقا مع مسألة الإيمان بالقضاء والقدر لأن الله تعالى هو خالق الأسباب والمسببات والمستقبل أمر غيبي يعلمه الله لذلك نحن ما علينا إلا أن نعمل ونوفر الجهد اللازم، و العمل الدنيوي والأخروي فكل إلى الله تعالى، فنحن مطالبون فقط بالعمل ولبيان هذا الأمر يقول: "الشرع معلوم لنا وضعه الله لنسير عليه أعمالنا والقدر مغيب أمرنا الله به لأنه من مقتضى العلم والإرادة من صفات ربنا فالقدرة

---

1. د.محمود قاسم: *عبد الحميد بن باديس*: ص96. – 2. ابن باديس: *التفسير*، ج1، ص82" كلا مزيدا، العاجلة، وزارة الشؤون الدينية.

من دائرة الاعتقاد والشرع في دائرة العمل وعلينا أن نعمل بشرع الله ونتوسل إلى المسببات المشروعة بأسبابها كتوسلنا للنسل بالزواج وللزرع بالحرث والعلم بالتعليم وهكذا مع الإيمان بالقدر، ونؤمن بسبق قدر الله فلا يكون إلا ما قدره منها"[1].

ويمتاز تفسير ابن باديس للسببية أي لاطراد القوانين بالنسبة لجميع البشر بأنه تفسير خلقي يرفع من قيمة الإنسان ويعلي من شأنه وهذه روح علمية مؤمنة متواضعة، تخالف نظرة الفلاسفة أمثال برتراند راسل وغيره.

- ترك الأسباب عمل مناف للإيمان

لقد توصل ابن باديس إلى حقيقة واضحة جلية أكدها له الدين والعلم فيما يتصل بقانون السببية وارتباطه الشديد بالواقع والحياة، فدعا الناس عامة والمؤمنين خاصة إلى ضرورة مراعاة هذا القانون الإلهي والأخذ بالأسباب فيما يرجونه من عمل.

"و من يظن أن ترك الأخذ بالأسباب نوع من الإيمان العميق بالله والاعتماد عليه إنما هو رجل يسيء فهم دينه لأن من يترك الأسباب من المؤمنين سوف يكون شقيا في الدنيا، ومن كان من الناجين في الآخرة، فسوف يؤاخذ على تقصيره في استخدام العلاقات السببية التي وضعها في متناول يده في الدنيا، فلم يشأ أن يستخدمها جهلا أو كسلا"[2].

ويرجع سبب تقدم المسلمين في الماضي إلى عنايتهم الشديدة بالأخذ بالأسباب، فهم لم يتقدموا إلا عندما "أخذوا بأسبابها كما أمرهم دينهم" كما يعزو تأخرهم وانحطاطهم إلى نكوصهم عن مراعاة قوانين السببية، فقد تأخروا حتى كادوا يكونون دون الأمم كلها

---

1. ابن باديس: *العقائد الإسلامية*، ص92. – **2**. ابن باديس: *التفسير*: ص66.

بإهمال تلك الأسباب، فخسروا دنياهم"[1]، وخالفوا مرضاة ربهم، وعوقبوا بما هم عليه من الذل والهوان والانحطاط.

إن ابن باديس وهو يقرر ضرورة الإيمان بالسببية ووجوب الأخذ بها واستخدامها في العلوم والصناعات والحياة لا يتسنى أن يذكر الإنسان بضعفه وحاجته إلى ربه، لأنه لا ينال حاجاته إلا بتوفيق من الله تعالى فالأخذ بالأسباب يجب أن يقترن بالإيمان بالله والاعتماد عليه لأن الإيمان بالله لا يتنافى مع فكرة الأخذ بالأسباب، بل العكس يفعلها لأن الله هو الذي خلق الأسباب ويسرها للإنسان.

"ولذلك نجده يربط ربطا محكما بارعا بين فكرة علمية حديثة وبين عقيدة إسلامية جمع فيها الإسلام بين تكريم العقل ووجوب تواضعه حتى لا يضل الإنسان في الإعجاب بنفسه وعقله، وينحرف عن طبيعته وإنسانيته"[2] كما هو حاصل اليوم في حياة الإنسان في ظل الحضارة المعاصرة التي تمجد العقل والإنسان وتدفعه إلى الانحراف.

– القضاء والقدر وحرية الإرادة

مسألة القضاء والقدر وحرية إرادة الإنسان قضية طالما أثير حولها النقاش والجدل، وتباينت حولها الآراء، واختلفت المواقف.

وحين تصدى ابن باديس لهذه المسألة الشائكة "لم يشأ أن يدخل في مناقشة مختلف الآراء التي دارت بين أهل الجبر المحض، والقائلين بحرية الإنسان واختياره من جانب وبين المعتزلة من جانب آخر"[3] لأن هذه المناقشات انزلقت بأهل الفرق والمذاهب إلى المهاترات.

---

1. ابن باديس: *التفسير*: ص78. – 2. د.محمود قاسم: *الإمام عبد الحميد بن باديس*، ص98. – 3. د.محمود قاسم: *الإمام بن باديس*: ص103.

وإنما سلك الأسلوب البسيط الواضح البعيد عن التعقيد فاتجه إلى الكتاب والسنة فاستقى منهما رأيه.

"فجاء رأيه صريحا اتسم بالبساطة والبعد عن التكلف والأساليب الملتوية"[1] أقرب ما يكون إلى رأي السلف شديد الشبه برأي ابن رشد والماتريدي.

وأما تعريفه للقضاء والقدر فإنه جاء متوافقا مع منهجه فقد عرفه بقوله: "هو تعلق علم الله وإرادته أزلا بالكائنات كلها قبل وجودها فلا حادث إلا وقد قدره الله تعالى أي سبق به علمه وتقدمت به إرادته، فكل حادث فهو حادث على وفق ما سبق به علم الله تعالى ومضت به إرادته"[2].

وخلاصة رأي ابن باديس في مسألة القضاء والقدر وحرية إرادة الإنسان أنه لا جبر في الفكر الإسلامي وأن الاختيار هو الأصل وأن جميع ما في الكون قد شملته نعم الله وأول هذه النعم هو وجود الموجودات ثم تتنوع تلك النعم الرحمانية بتنوع الموجودات وأنواعها وتتفاوت تبعا لذلك.

وقد أعطى الله الناس نعمة الوجود ومكنهم من أسبابها وخلقهم متساوين من حيث العقل المميز والإرادة الحرة، فكل إنسان يختار بعقله وهو يعتمد على إرادته الحرة التي لا يمكن أن يكابر أحد في وجودها لكي يختار ما يرضاه لنفسه وعلى حسب ما هدى الله تفكيره"[3].

– حرية إرادة الإنسان عند ابن باديس

يعتمد ابن باديس في قوله بحرية الإرادة عند الإنسان على جملة من الأمور التي جعلها كدلائل وبراهين يؤيد بها ما ذهب إليه منها[4]:

---

1. حسن عبد الرحمن سلوادي: *ابن باديس*: ص89. – **2.** ابن باديس: *العقائد*: ص50. – **3.** د. محمود قاسم: المرجع السابق، ص104. – **4.** د. محمود قاسم: السابق: ص104.

السيرة: فقد شرح رسول الله صلى الله عليه وسلم للناس بسيرته الطريق للناس، فهي المصباح الذي ينير لهم الطريق.

العقل الذي وهبه الله لهم : فالعقل حجة الله على خلقه لأنه وهبه لهم وميزهم به وفضلهم على المخلوقات وأنعم عليهم بحرية الاختيار.

بعثة الرسل : فقد بعث الله الرسل إلى الناس كلهم "وجاءهم كلهم رسل الله بآياته السمعية داعية الله، فاختار كل بعقله، وهو حر في إرادته حرية لا يمكن أن يكابر فيها ما اختار لنفسه"[1] فبعثه الرسل في حد ذاته يعتبره ابن باديس دليلا على حرية الإرادة.

- ما يجده الإنسان في نفسه من القدرة إلى الاختيار

لقد بين ابن باديس أن الله تعالى دل الخلق برسوله وبكتابه على ما فيه كمالهم وسعادتهم ومرضاة خالقهم، فكانت هذه الوسيلة الأولى التي تمكن الإنسان من الاختيار ثم جعل في الإنسان العاقل ما يجده في نفسه من التمكن والاختيار" فقامت بذلك الحجة عليه.

فالإنسان بهذه العوامل كلها من بعثة الرسل وإنزال الكتب والعقل وما في الوجدان يستطيع أن يختار بحرية وهذه الحرية لا تتعارض مع علم الله السابق، لأن علم الله السابق لا يؤثر في حرية إرادته واختياره، ويرد ابن باديس على الذين يحتجون للقول بالجبر بعلم الله السابق ويضرب مثالا يقرب به المعنى إلى الأذهان ويزيل الإشكال القائم في أذهان من يحتجون بسابق علم الله لنفي حرية الإرادة لدى الإنسان فيقول: قد يكون للرجل ولدان هو عالم بنفسيتهما وأخلاقهما وسيرهما ثم يأمرهما بأمر فيه الخير لهما وهو يعلم

---

1. ابن باديس: *التفسير*: ص79.

بما علم من أحدهما أن يمتثل، ويعلم بما علم من الآخر أنه يخالف، ويقول لأهل بيته إن فلانا سيمتثل وإن فلانا سيخالف، فظهر ما قاله، وما علمه في كل واحد، فجازى الممتثل على طاعته، وجازى المخالف على عصيانه، فلا شك أن هذا الرجل قد أحسن إلى ولديه، وفعل ما تقتضيه أبوته من النصح والإرشاد، ولا يقدح في ذلك علمه بما سيكون منهما، لله المثل الأعلى فقد أحاط بكل شيء علما، يعلم من سيطيعه ومن سيعصي، ولكنه الحكم العدل فلم يكن ليجازيهم على سابق علمه فيهم الذي لا دخل لهم فيه بل جعل جزاءهم بعد إقامة الحجة عليهم بما يكون من اختيارهم ليكون جزاؤهم على ما عملوا وما قدمت أيديهم، وما لهم دخل فيه بالكسب والاكتساب"[1].

الحسن والقبح في الأفعال ومكانة العقل

على الرغم من أن الإمام ابن باديس شديد التمسك بالكتاب والسنة كثير الاعتماد في منهجه عليهما فإنه لم يهمل دور العقل ومكانته كما فعل معظم اتباع المنهج السلفي بل جعل العقل بما يدركه من العلاقات والروابط وسيلة من وسائل الاستدلال والمعرفة والإدراك، ومن ثم تطرق إلى مسألة الحسن والقبح في الأفعال ودور العقل في ذلك.

هذه المسألة أسالت الكثير من الحبر وأخذت جهدا كبيرا من الفلاسفة وعلماء الكلام منذ القرون الأولى للإسلام وذهب كل فريق فيها مذهبا معينا.

أما ابن باديس فإنه يقرر بادئ ذي بدء بأن حسن الطاعات وقبح المعاصي مركوز في العقول وأن من رحمة الله أنه أعطى للعقل

---

1. ابن باديس: *التفسير*: T.2، ص377.

الإنساني قدرة يميز بها بين القبيح والحسن أي بين الرذيلة والفضيلة"[1] وهذا فضل الله على الإنسان حتى "يسهل عليه اتباع شرائع الله التي أوحى الله بها إلى رسله". ويتمكنون من إدراك الحكمة من النهي والتحريم والغاية من الإباحة هذا من جهة ومن جهة أخرى يكون الثواب والعقاب قائما على أساس الاختيار.

وبهذا يكون ابن باديس كما يرى الدكتور محمود قاسم من القائلين بالقبح والحسن الذاتيين في الأفعال، مستنبطا رأيه هذا من قوله "والمحاسن محبوبة لله، أمر بها، ويثيب عليها، ويرضى عن فاعلها، والمقابح مبغوضة من الله تعالى، نهى عنها ويعاقب عليها، ويسخط على مرتكبها"[2] وهذا الرأي يخالف به ابن باديس متكلمي الأشاعرة الذين يقولون بأن الحسن ما حسنه الشرع والقبيح ما قبحه وأن الفعل ولو كان في العقل حسنا وقبحه الشرع فإنه يكون قبيحا.

ويؤكد محمود قاسم أن رأي ابن باديس في هذه المسألة واضح كل الوضوح لأنه يقرر" أن ما أمر الله به هو الحسن المحبوب، وأنّ ما نهاهم عنه هو القبيح المبغوض، تعلموا من ذلك أن أوامر الشرع ونواهيه هي على مقتضى العقل الصحيح والفطرة السليمة، وأنه تعالى لا يأمر بقبيح، ولا ينهى عن حسن، وفي علمهم هذا ما يحملهم على الامتثال ويرغبهم فيه"[3]. ويتفق رأي ابن باديس هذا مع ما قرره أن العقل يميز بين الحسن والقبح الذاتيين اللذين يفترقان بناء على أصول ثابتة مغروسة في فطرة الإنسان.

وإن الشرع يساند العقل في هذه الناحية، ويعاونه في التطبيقات الفرعية على الأصول الثابتة[4].

---

1. انظر: ابن باديس: *التفسير*: ج8، ص128. – 2. ابن باديس: نفسه، ص147. – 3. ابن باديس: نفسه: ص147. – 4. انظر: محمود قاسم: *الإمام عبد الحميد بن باديس*: ص109.

هذه هي أهم الملامح التي امتاز بها منهج الإمام ابن باديس في دراسته للعقيدة الإسلامية وعرضه لقضاياها حاولت قدر الطاقة وغاية الوسع الإلمام بها فإن وفقت فذلك فضل من الله وإن كان غير ذلك فتلك طبيعة البشر.

قائمة بأسماء المراجع

1. ابن باديس عبد الحميد: *مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير*، وزارة الشؤون الدينية، ط1، 1982
2. إبن باديس عبد الحميد: *أصول الدعوة* .وزارة الشؤون الدينية .1993.
3. ابن باديس عبد الحميد: *العقائد الإسلامية*، مكتبة الشركة الجزئرية الجزائر.
4. د.محمود قاسم: *الإمام عبد الحميد بن باديس الزعيم الروحي لثورة التحرير*، دار المعارف، القاهرة، ط.II.
5. حسن عبد الرحمان سلوادي: *عبد الحميد بن باديس مفسرا*، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1988.
6. د.تركي رابح عمامرة: *الشيخ عبد الحميد بن باديس*، رائد الإصلاح والتربية في الجزائر، المؤسسة الوطنية للنشر والتوزيع.
7. إبن رشد : *مناهج الأدلة في عقائد الملة*. دار الأفاق الجديدة بيروت ط1 .1982
8. د. حسن الترابي :*الصلاة عماد الدين* .دار القلم الكويت ط1983.
9. د عبد المجيد النجار :*الإيمان أثره في الحياة*. دار الغرب الإسلامي.ط 1. .1997